

على كمال البراعة والالتذاذ بالغرابة.

وأما تعجبك من أبي تمام في اختيار هذا النوع وخروجه عن ميدان شعره ومفارقته ما يهواه لنفسه وإجماع نقاد الشعر بعده على ما صحبه من التوفيق فالقول فيه:

إن أبا تمام كان يختار ما يختار منه لوجوده لا غير ويقول ما يقول من الشعر لشهوته والفرق بين ما يشتهي وما يستجد ظاهر بدلالة أن العارف بالبرز قد يشتهي لبس ما لا يستجده ويستجيد ما يشتهي به، وعلى ذلك جميع أعراض الدنيا مع العقلاء العارفين بها في الاستجابة والاشتهاء وهذا الرجل لم يعتمد من الشعراء إلى المشتهرين منهم دون الأغفال ولا من الشعر إلى المتردد في الأفواه المجيب لكل داع وكان أمره أقرب، بل اعتسف في دواوين الشعراء جاهليهم ومخضرميهم وإسلاميهم ومولدهم فاختلفت منها الأرواح دون الأشباح وأخذت الأثمار دون الأكمام، وجمع ما يوافق نظمه ويخالفه لأن ضروب الاختيار لم تخف عليه وطرق الإحسان والاستحسان لم تستر عنه حتى أنك تراه ينتهي إلى البيت الجيد فيه لفضة تشينه فيجبر نقيصته من عنده ويبدل الكلمة باجتهاده في نقده، وهذا يبين لمن رجع إلى دواوينهم فقال ما في اختياره بها، ولو أن نقد الشعر كان يدرك بقوله لكان من يقول الشعر من العلماء أشعر الناس، ويكشف هذا أنه قد يميز الشعر من لا يقوله ويقول الشعر الجيد من لا يعرف نقده. وعلى ذلك كان البحترى لأنه فيما حكى عنه كان لا يعجب من الشعر إلا بما يوافق طبعه ومعناه ولفظه، وحكى الصولي أنه سمع المبرد يقول: سمعت الحسن بن رجاء يقول (لم أر أحداً قط أعلم بجيد الشعر قديمه وحديثه) من أبي تمام، وحكى عنه أنه مر بشعر ابن أبي عيينه فيما كان يختاره من شعر المحدثين فقال وهذا كله مختار هنا، وشعره أبعد الأشياء من شعره وهذا واضح.

وأما ما غلب على ظنك من أن اختيار الشعر موقوف على الشهوات، إذا ما كان يختاره زيد يجوز أن يزيفه عمرو وأن سييلها سبيل الصور في العيون إلى غير ذلك مما ذكرته فليس الأمر كذلك لأن من عرف مستور المعنى ومكشوفه ومرفوض اللفظ ومألوفه ومميز البديع الذي لم يقتسمه المعارض ولم تعتسفه الخواطر وناظر وتبحر ودار في أساليب الأدب فتخيره، وطالت مجاذبته في التذكر والأبحاث والتداول والابتعاث، وباق له القليل النائب عن الكثير